عناصر المحاضرة : [مفهوم الرثاء (لغة– اصطلاحا)، حقيقة الرثاء في التصور الإسلامي، نظرة على المراثي النبوية، الخصائص الفنية للمراثي النبوية، مضامين المراثي النبوية]

تمهيد :

مما لاشك أن الحديث عن فن الرثاء في عصر صدر الإسلام يستوقفنا عند المصيبة العظمى التي حلَّت بالأمة جمعاء بقبض النبي صلى الله عليه وسلم، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، ولعل هذه الفاجعة ما إن استوعبها الصحابة حتى انطلقوا يتسابقون في رثائه صلى الله عليه وسلم بما جادت قرائحهم، فهو أقل ما يمكن أن يردَّ به الجميلَ الشعراءُ، وما دام الأمر كذلك سنحاول في هذه المحاضرة أن تسلط الضوء على المراثي النبوية في عصر صدر الإسلام، وكيف استقبل الشعراء موته صلى الله عليه وسلم؟ وأين تبرز خصائصها الفنية والمضمونية ؟

مفهوم الرثاء :

يعدُّ فن الرثاء من أقدم الفنون الشعرية وأصدقها [1]، لأنه مرتبط بحقيقة الموت، وقد أكثر الشعراء في نظم قصائدهم الرثائية، وتنوعت أغراضهم فيه من رثاء الأفراد إلى رثاء الأعضاء إلى رثاء البلدان والممالك والقصور وحتى رثاء القيم، وقبل التطرق للمراثي النبوية نحاول رصد مفهومه من الناحية اللغوية والاصطلاحية :

لغة : جاءت لفظة الرثاء في المعاجم العربية لتدلَّ على ثلاثة أصولٍ لغويةٍ :

1/ **الأصل الأول : رث أ** (مهموز الألف)، وتدلُّ على معنى الخلط والاختلاط، ومنه قولهم : « الرَّثِيئَةُ تَفْثَأُ الغَضَبَ (أي تُذْهِبُه وَتَكْسِرُهُ وَتطفُؤُه)" وَهَيَ اللَّبَنُ الحَامِضُ يُحْلَبُ عَلَيه فَيَخْثَرُ، وَمِنْهَا: ارْتَثَأَ عَلَيهِمْ أَمْرُهُمْ إِذَا اخْتَلَطَ» [2]ويقال: « وهم يَرْثَؤُون رأيَهُمْ رَثْأً، أي: يخلطون، وارتثأ فلانٌ في رأيه، أي: خَلَّطَ » [3]

---

[1] – جاء في العقد الفريد : « قال الأصمعي: قلت لأعرابي: ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأنَّا نقولها وقلوبنا محترقة » ابن عبد ربه الأندلسي ج03، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1404هـ، ص183.

[2]– أبو القاسم محمود جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، ج01، تح : محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1998، ص337.

[3] – أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج01، تح : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط04، 1987، ص 52.

2/ **الأصل الثاني** : **ر ث ى** بالألف اللينة ومضارعه يرثي، جاء في معجم العين : « رَثَى فُلانٌ فُلاناً يَرْثِيه رَثْياً ومَرْثِيةً، أي: يَبْكِيه ويَمْدَحُهُ، والاسْمُ: المَرْثِيَةُ » [1]

3/ **الأصل الثالث** : **رثَّ** بالثاء المضعَّفة، ويدلُّ على الإخلاق والسقوط والتقادم ومنه قولهم : « الرَّثُّ والرِّثَّةُ والرَّثِيثُ: الخَلَق الخَسيسُ الْبَالِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، تَقُولُ: ثوبٌ رَثٌّ، وحَبْلٌ رَثٌّ، وَرَجُلٌ رَثُّ الهيئة فِي لُبْسه؛ وأَكثر مَا يُستعمل فِيمَا يُلبس، وَالْجَمْعُ رِثاثٌ » [2]

اصطلاحا :

كلمة الرثاء اصطلاحا نعني بها : البكاء على الميت وذكر مناقبه شعرا أو نثرا، ومنه التَرَثِّي، « وَهُوَ أَن يُنْدَب الميِّتٰ فيقال وا فلاناه، ورَثَيْتُ لَهُ: رَحِمْتُهُ، وَيُقَالُ: مَا يَرْثِي فلانٌ لِي أَي مَا يَتَوَجَّع وَلَا يُبالِي، وإِنِّي لأَرْثِي لَهُ مَرْثَاةً ورَثْياً، ورَثَى لَهُ أَي رَقَّ لَهُ » [3]، والمرثية جمعها مراثٍ، ولم يرد جمعٌ للرثاء، وهي —كما يعرفها مقبول علي بشير النعمة – : « القصيدة أو القطعة الشعرية أو الأثر الأدبي، الذي تتخذه الرثاء موضوعا لها، أما الرثاء فهو الإشفاق والحزن، وهو أمر معنويٌّ » [4]

وهناك مفردات لها علاقة وثيقة بالرثاء منها الندب والتأبين والنعي، وكلها يجمعها خيط واحد هو أنها تقال في حالات الحزن والأسى.

والملاحظ أن شعر المدح في الغالب يختلط عند الشعراء بغرض الرثاء، لأن الثاني قسم من الأول، فالنقاد العرب رأوا أن الشعر كله — في الحقيقة — يرجع لنوعين لا ثالث لهما فالشعر إما مدح وإما هجاء، وفي هذا يقول ابن رشيق القيرواني : « قال قوم: الشعر كله نوعان: مدح، وهجاء؛ فإلى المدح يرجع الرثاء، والافتخار، والتشبيب، وما تعلق بذلك من محمود الوصف: كصفات الطلول والآثار، والتشبيهات الحسان، وكذلك تحسين الأخلاق: كالأمثال، والحكم، والمواعظ، والزهد في الدنيا، والقناعة... » [5]وعلة اعتبارهم الرثاء جزءا من المدح، أن الرثاء يتناول أخلاق المرثي ويعدد مناقبه، فهو مدح لكنه موجه للأموات، ويظهر الفرق بينهما زيادة على هذا أنهما وإن كانا يتفقان في المعاني، فهما يختلفان في الأحاسيس، أما المراثي النبوية، فيرى كثير من الدارسين أنها، تحمل المعنيين معاً؛ فهي مراث، وفي الأن نفسه هي مدائح له، يقول زكي مبارك : « أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفلاة الرسول صلى الله

---

[1] – أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج02، ترتيب وتحقيق : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2003، ص97.

[2] – أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ج02، دار صادر، بيروت، لبنان، ط03، 1414هـ ، ص 151.

[3] – المرجع نفسه، ج 14، ص 309.

[4] – المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997، ص15.

[5] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج01، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط05، 1981، ص 121.

عليه وسلم، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاءً، ولكنه في رسول الله صلى الله عليه وسلم مدحًا، وكأنهم لحظوا أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم موصولا بالحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء » [1]، هذا من ناحية ومن ناحية آخرى أنَّ الصحابة الذين رثوه صلى الله عليه وسلم هم مدركون أن ثناءهم عليه بعد موته بالصلاة والسلام يصله إلى قبره، لما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ، إِلَّا رَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » [2].

ومعلوم أن الرثاء غرض تدور رحاه حول فكرة الموت، والشعراء انطلاقا من هذا الربط لم يقصروا الكلام في مرثياتهم عن إسبال الدموع ورفع الصوت بالنحيب، بل انطلقوا في فضاءات واسعة من التصوير والتأمل، فحاولوا فلسفة الموت، وأقاموا تصوراتهم عليه، بل جعلوا من قصص صراع البقاء بين الحيوانات معادلات موضوعية لعلاقة الموت بالإنسان، يقول الجاحظ مقررا هذه الفكرة: « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة، أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحا، وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها » [3] بل لم يكتفوا من ذلك فجعلوا الكون كله يعيش تجربة الفناء، ويشاركهم آلامهم وانكساراتهم وأحزانهم.

حقيقة الرثاء في التصور الإسلامي :

لعلَّ وجه اختلاف الرثاء بين العصر الجاهلي والإسلامي، يتمحور حول رؤية الموت عند الإنسان الجاهلي وعند الإسلامي، فإذا كان الأول ينظر للموت – بحكم وثنيته – أنه فناءٌ محضٌ، يغادر صاحبه الدنيا فلا بعث ولا نشور، وأن الذي يهلكهم هو الدهر، يقول الله تعالى حاكيا اعتقادهم : ((لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)) [النمل : 68]، فإنَّ المسلم يرى في الموت أنه نُقلة من دار الفناء إلى دار البقاء، فلهذا هو يجتهد لأن يكسب في الدنيا من الثواب والأجر ما يمكنه من نيل مرضاة الله والدخول إلى نعيمه، وخاصة إذا كان الموت في سبيل الله، فلا يجد من يرثيه إلا أن يذكر مناقبه بقلب راضٍ بقضاء الله، لأنه يعلم أين مستقره، وماذا أعدَّ الله له، فالموت حينذاك مفخرة عظيمة، لا ينالها كل الناس، ولعل خير ما نمثل به في هذا الصدد موقف الخنساء من موت أخويها في الجاهلية (صخر ومعاوية)، واستشهاد أبنائها في الإسلام في موقعة القادسية، ففي الأولى بكتهما بكاءً مرًّا، حتى أضحت بالرثاء أشعر النساء، وفي الثانية قالت لما سمعت باستشهادهم : ((الحمد لله الذي

---

[1] – المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، دت، ص 17.

[2] – رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل، المسند، ج 16، تح : شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط01، 2001، ص 477. الحديث رقم [10815] ورواه أيضا أبو داوود والبيهقي وغيرهما ، حسَّنه الألباني في مشكاة المصابيح، ج01، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط03، 1985، ص 291.

[3] – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان،ج 02،ح : عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ، ط02، 1965، ص 20.

شرَّفني بقتلهم))، فاختلف حالها مع من فقدتهم باختلاف رؤيتها للموت في جاهليتها وفي إسلامها، ولكن مع هذا لا شك أن للموت وقعه، ولذلك لم يخفت صوت النائحات بالبكاء في أيِّ عصر من العصور، لكنه في عصر صدر الإسلام ازدهر في ثوبه الجديد الملتزم، وبخاصة أن هذه الفترة وما بعدها كانت مليئة بالحروب والمعارك، ومن الطبيعي أن يسقط القتلى في المشركين والشهداء من المسلمين، فمن ذلك ما ورد عن الأسود بن المطلب، الذي قُتل له ثلاثة أبناء يوم بدر، وقد منعت قريش البكاء على قتلاها، حتى لا يشمت المسلمون فيهم، فسمع الأسود نائحة تنوح، فظنَّ أن قريشا قد أحلَّت النحيب، فإذا هي تبكي على بعير أضلَّته، فقال [1] :

أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ	وَيَمْنَعُهَا مِنْ النَّوْمِ السُّهُودُ
وَبَكِّي إِنْ بَكَيْتِ عَلَى عَقِيلٍ	وَبَكِّي حَارِثًا أَسَدَ الْأُسُودِ
وَبَكِّيهِمْ وَلَا تَسْمِي جَمِيعًا	وَمَا لِأَبِي حَكِيمَةَ مِنْ نَدِيدِ
أَلَا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمْ رِجَالٌ	وَلَوْلَا يَوْمُ بَدْرٍ لَمْ يَسُودُوا [2]

والملاحظ أن الشعراء المخضرمين قد استوعبوا حقيقة الموت في التصور الإسلامي، فجاءت مرثياتهم تسير وفق العقيدة السماوية، فإذا عدَّدنا ما قيل من رثاءٍ في هذا العصر في حقِّ من مات أو استشهد من المسلمين فسوف نرى خلاف ما كان من رثاء الشعراء المشركين لقتلاهم، وحسبنا دليلا من ذلك رثاء كعب بن مالك لحمزة سيد الشهداء ومن استشهد من المسلمين يوم أحدٍ [3]:

وَقَتْلَاهُمْ فِي جِنَانِ النَّعِيمِ	كِرَامُ الْمَدَاخِلِ وَالْمَخْرَجِ
بِمَا صَبَرُوا تَحْتَ ظِلِّ اللِّوَاءِ	لِوَاءُ الرَّسُولِ بِذِي الْأَضْوُجِ
غَدَاةَ أَجَابَتْ بِأَسْيَافِهَا	جَمِيعًا بَنُو الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ
وَأَشْيَاعُ أَحْمَدَ إِذْ شَايَعُوا	عَلَى الْحَقِّ النُّورَ وَالْمَنْهَجِ
فَمَا بَرِحُوا يَضْرِبُونَ الْكُمَاةَ	وَيَمْضُونَ فِي الْقَسْطَلِ الْمُرْهَجِ
كَذَلِكَ حَتَّى دَعَاهُمْ مَلِيكٌ	إِلَى جَنَّةِ دَوْحَةِ الْمَوْلِجِ
كُلُّهُمْ مَاتَ حُرَّ الْبَلَاءِ	عَلَى مِلَّةِ اللهِ لَمْ يَحْرَجِ

[1] – أبو محمد عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية، ج01، تح : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط02، 1955، ص 648.

[2] – قد لاحظ من أوردوا هذه الأبيات أنها فيها إقواءً (اختلاف حركة الروي في الأبيات)، فالبيت الأول والرابع جاءا مرفوعين والثاني والثالث مجرورين.

[3] – الديوان، تح : سامي مكي العاني، مطبعة المعارف، بغداد، العراق، ط01، 1966، ص 187- 188.

كَحَمْزَةَ لَمّا وَفّى صَادِقًا	بِذِي هِبَةٍ صَارِمٍ سَلْجَجِ
فَلَاقَاهُ عَبْدُ بَنِي نَوْفَلٍ	يُبَرْبِرُ كَالْجَمَلِ الْأَدْعَجِ
فَأَوْجَرَهُ حَرْبَةً كَالشِّهَابِ	تَلَهَّبُ فِي اللهَبِ الْمُوهَجِ
وَنُعْمَانُ أَوْفَى بِمِيثَاقِهِ	وَحَنْظَلَةُ الْخَيْرُ لَمْ يُحْنَجِ

نظرة على المراثي النبوية :

إن أعظم ما أصاب الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل هو موت النبي صلى الله عليه وسلم، وصعوده إلى الرفيق الأعلى، بحيث إن أي مصيبة بعده تهون، ولهذا جاء في الحديث : « إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ، فَلْيَذْكُرْ مصيبته بِي، فإِنَّها مِن أَعظَمِ الْمصائِبِ » [1]، ولهذا لم يتسلّ ولم يتعزَّ أحد بموت النبي صلى الله عليه وسلم إلا هانت مصيبته.

وما إن مات النبي صلى الله عليه وسلم واستوعب المسلمون فاجعة فقده، طفق الشعراء يرثونه بقصائد تقطر حزنا وأسىً، وإذا كان حسان بن ثابت من أبرز من رثوا النبي صلى الله عليه وسلم فإن شعراء غيره كثرٌ قد رثوه من أمثال كعب بن مالك، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعمرو بن سالم الخزاعي، وسالم بن هبيرة الحضرمي، وأروى وعاتكة وصفية بنات عبد المطلب (عمَّات النبي صلى الله عليه وسلم)، وهند بنت أثاثة، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وأم أيمن، وغيرهم [2]

نحاول أن نذكر أشهرها، من ذلك قول حسان في قصيدته الطويلة، التي منها [3]:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ	مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمُدُ
وَلَا تَمْتَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ	بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آثَارٍ وَبَاقِي مَعَالِمَ	وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا	مِنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ	وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحِدُ

[1] – رواه بهذا اللفظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، مسند الدارمي ، ج01، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط01، 2000، ص222، وقد رُوي بألفاظ قريبة كما عند عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، والطبراني في معجميه الصغير والكبير، والحديث صحَّحه محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج03، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط01، 1995، ص 97.

[2] – راجع للاستزادة : محمد شمس عقاب، المراثي النبوية في أشعار الصحابة (دراسة وتحقيق)، دار الكتب المصرية ، القاهرة، مصر، ط01، 2013. فقط أحاط بدراسته كل القصيدة، التي قيلت في عصر صدر الإسلام تقريبا، مع دراسة خصائصها الفنية.

[3] – الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 1994، ص60، 62.

أَطَالَتْ وُقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنَ جُهْدَهَا	عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذي فيه أَحْمَدُ
فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ	بِلَادٌ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
وَبُورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضُمَّنَ طَيِّبًا	عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدُ
تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرَبَ أَيْدٍ وَأَعْيُنٍ	عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حُلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً	عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرَى لَا يُوَسَّدُ
وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ	وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةُ هَالِكٍ	رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ؟
تَقَطَّعُ فِيهِ مَنْزِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ	وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنَجَّدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ	وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا	مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يُسْعَدُوا
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهُدَى	حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُثَنَّى جُنَاحُهُ	إِلَى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ

وقال حسان في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم [1] :

نَبِّ الْمَسَاكِينَ أَنَّ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ	مَعَ الرَّسُولِ تَوَلَّى عَنْهُمُ سَحَرَا
مِنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي وَرَاحِلَتِي	وَرِزْقَ أَهْلِي، إِذَا لَمْ نُؤْنِسِ الْمَطَرَا
ذَاكَ الَّذِي لَيْسَ يَخْشَاهُ مُجَالِسُهُ	إِذَا الْجَلِيسُ سَطَا فِي الْقَوْلِ أَوْ عَثَرَا
كَانَ الضِّيَاءَ. وَكَانَ النُّورَ نَتَّبِعُهُ	بَعْدَ الإِلَهِ وَكَانَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَا
فَلَيْتَنَا يَوْمَ وَارَوْهُ بِمَلْحَدِهِ	وَغَيَّبُوهُ وَأُلْقَوْا فَوْقَهُ الْمَدَرَا
لَمْ يَتْرُكِ اللَّهُ مِنَّا بَعْدَهُ أَحَدًا	وَلَمْ يَعِشْ بَعْدَهُ أُنْثَى وَلا ذَكَرَا
ذَلَّتْ رِقَابُ بَنِي النَّجَّارِ كُلِّهِمُ!	وَكَانَ أَمْرًا مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ قُدِرَ

وقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ يَرْثِي رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم [2]:

يَا عَيْنُ فَابْكِي بِدَمْعٍ ذَرَى	لِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَالْمُصْطَفَى!
عَلَى خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ	وَأَتْقَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ التُّقَى
عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْفَلٍ	وَخَيْرِ الأَنَامِ وَخَيْرِ اللَّهَا!

[1] – المصدر السابق، ص 102.

[2] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص 173

الخصائص الفنية للمراثي النبوية :

لا يمكن تناول الخصائص الفنية للمراثي النبوية بعيدا عن المراثي الأخرى، ففي الغالب هي تنحو منحى واحدا، يجد صداه في المستوى الفني العام للقصيدة في صدر الإسلام، ومما يمكن تناوله في هذا الصدد العناصر التالية :

المقدمات :

إذا كانت القصيدة الجاهلية قصيدة مركبة، تعتمد على تعدد الأجزاء، انطلاقا من الوقوف على الأطلال، والحديث عن المحبوبة، ووصف الرحلة، والناقة، ووصف الصحراء، ثم الخلوص إلى الغرض الأساس، فإن القصيدة في صدر الإسلام ما زالت محافظة على هيكلتها، إلا في قصيدة الرثاء فإن مقدمتها كانت بعيدة عن التشبيب والغزل، لعدم تناسب موقف بكاء الميت مع ذكر المرأة، وفي هذا يقول ابن رشيق القيرواني معلقا على ورود قصيدة دريد بن الصمة الرثائية بمقدمة غزلية، وهي سابقة نادرة الورود في الشعر العربي : « إنه الواجب في الجاهلية والإسلام، وإلى وقتنا هذا، ومن بعده؛ لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة » [1]، ولهذا فإن أغلبية قصائد الرثاء في عصر صدر الإسلام جاءت خالية من مقدمات طللية أو غزلية، وإنما جاءت بما يتناسب مع غرض الرثاء، والتي جاءت بمقدمات طللية وغزلية، فإنما هي – مع عدم مراعاتها لمقتضى الحال – جاءت كتقليد فني شكلي درج عليه الشعراء، فلم يستطيعوا مخالفته، هذا من جهة ومن جهة ثانية أنَّ المقدمات الغزلية جاءت في معرض ذكر الشاعر لهجر حبيبته له، فكأنَّه يستذكر ما نزل به من الهمِّ ، حتى يجعله مطية لذكر همٍّ أكبر منه وهو الموت، بحيث يُوجِدُ الشاعر علاقة بين الغزل والرثاء، كما في رثاء مُتمِّمٍ بن نويرة لأخيه مالك [2]:

صَرَمَتْ زُنَيْبَةُ حَبْلَ مَن لا يَقْطَعُ	حَبْلَ الخَلِيلِ ولَلأَمانَةَ تَفْجَعُ
ولقدْ حَرَصْتُ علي قليلِ مَتاعِها	يومَ الرَّحيلِ فدَمعُها المُسْتَنْفَعُ
جُدِّى حِبالَكِ يا زُنَيْبَ فإنني	قد أَستبِدُّ بوصلِ مَن هو أَقطعُ

ولعلَّ هذه القراءة تصوِّب رأي ابن رشيق السابق، ومع هذا فإن المراثي النبوية لا نجد فيها ولا قصيدة واحدة تثبتُ لصاحبها قد بدأها بمقدمة غزلية، أما المقدمة الطللية، فإننا نجد لحسان بن ثابت القصيدة الآنفة الذكر في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم، بدأها بالوقوف على الطلل، ولكن فيه مفارقة عجيبة،

[1] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 152.

[2] – المفضل بن محمد الضبي، المفضليات، تح : أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط06، ص 49.

حيث إنه استبدل ما كانت العرب تذكرهُ في مقامها على الديار كذكر أسماء الأماكن، والأثافي، والظباء وغيرها بذكر المنبر والمصلى والمسجد والحجرات، وقبر الرسول، فيقول : [1]:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ	مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمُدُ
وَلَا تَمْتَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ	بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آثَارٍ وَبَاقِي مَعَالِمَ	وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا	مِنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ	وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحِدُ

واضح من هذا الاستبدال استيعاب حسان بن ثابت للمفاهيم الإسلامية الجديدة، بحيث أن وقوفه على الأطلال ليس على ديار راسمة عافية، وإنما وقف على فضاءات تحمل بين طياتها دلالات دينية عامرة بالحياة، هذا وإن كانت المقدمة الطللية أقرب لغرض الرثاء من المقدمة الغزلية إذ إن كلاهما يقف باكيا على ذكرى ماضية، تؤرِّق الشاعر وتؤجج فيه مشاعر الفقد والضياع.

*ولعلَّ أظهر مقدمة مرتبطة بالمراثي في عصر صدر الإسلام، والنبوية منها على وجه الخصوص هي المقدمة البكائيَّة، والتي فيها يصف الشاعر ما به من ألم، فيبكّي عينيه، كقول أروى بنت عبد المطلب رضي اللَّه عنها في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم [2]:

أَلا يَا عَيْنُ! وَيْحَكِ أَسْعِدِينِي	بِدَمْعِكِ مَا بَقِيتِ وَطَاوِعِينِي
أَلا يَا عَيْنُ وَيْحَكِ! وَاسْتَهِلِّي	عَلَى نُورِ البِلَادِ وَأَسْعِدِينِي!
فَإِنْ عَذَلَتْكِ عَاذِلَةٌ فَقُولِي:	عَلَامَ وَفِيمَ، وَيْحَكِ! تَعْذِلِينِي؟
عَلَى نُورِ الْبِلَادِ مَعًا جَمِيعًا	رَسُولِ اللَّهِ أَحْمَدَ فَاتْرُكِينِي
فَإِلا تُقْصِرِي بِالْعَذْلِ عَنِّي	فَلُومِي مَا بَدَا لَكِ أَوْ دَعِينِي!
لِأَمْرٍ هَدَّنِي وَأَذَلَّ رُكْنِي	وَشَيَّبَ بَعْدَ جِدَّتِهَا قُرُونِي!

وقد يقرن ذلك بذكر سهاده وأرقه، ومن ذلك ما قاله حسان راثيا النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة مطلعها [3] :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا	كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

[1] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص60، 62.

[2] – أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى،ج02، تح : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1990، ص 247- 248.

[3] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص 65.

جَزَعًا عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِيًا	يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعَدِ
وَجْهِي يَقِيكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِي	غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ
بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ	فِي يَوْمِ الاِثْنَيْنِ النَّبِيُّ الْمُهْتَدِي
فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّدًا	مُتَلَدَّدًا يَا لَيْتَنِي لَمْ أُولَدِ

*وهناك أيضا المقدمات الخطابية؛ وفيها يخاطب الشاعر مرثيه مناديا له أو مخاطبا أياه، كأنه ما زال حيًّا، وذلك لعظم المصيبة على الراثي، وعدم مقدرته على استيعاب موته، وصعوبة التسليم بفقده، ومن هذا النوع قول أروى بنت عبد المطلب في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم [1]:

أَلا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا	وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا!
وَكُنْتَ بِنَا رَءُوفًا رَحِيمًا نَبِيَّنَا	لِيَبْكِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيًا!

ومنه أيضا رثاء فاطمة رضي الله عنها، وهند بنت أثاثة له صلى الله عليه وسلم.

*وهناك المقدمة النَّعْيِّيَة؛ وفيها ينعي الشاعر مرثيه، أو يأمر بنعيه، أو يذكر أنَّ نعياً أتاه، ومن ذلك قول كعب بن مالك رضي الله عنه في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم [2] :

أَلَا انْعِي النَّبِيَّ إلى العَالَمِينَا	جَمِيعًا لَاسِيَمَا الْمُسْلِمِينَا
أَلَا انْعِي النَّبِيَّ لأَصْحَابِهِ	وَأَصْحَابِ أَصْحَابِهِ التَّابِعِينَا
أَلَا انْعِي النَّبِيَّ إِلَى مَنْ هَدَى	مِنَ الجِنِّ لَيْلَةَ إِذْ تَسْمَعُونَا

ومنه أيضا رثاء علي، وعبد الله بن أنيس، وهند بنت أثاثة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم.

وهناك مقدمات أخرى لها وجود في مراثي عصر صدر الإسلام، لكن لا وجود لها في المراثي النبوية منها المقدمة النَّدبية؛ وفيها يطلب الشاعر من النساء أن يندبن الميت وينحن عليه، معدِّدات مناقبه وفضائله، والمقدمة التأملية؛ وفيها يتفكر الشاعر في الوجود البشري ومصيره، فيستحضر فعل الدهر فيهم بالهلاك والفناء، وأشهر قصائدها عينية أبي ذؤيب الهذلي الشهيرة، والمقدمة الإبلاغية؛ وفيها يستخدم الشاعر عبارات من مثل : ((من مبلغٍ أنَّ– أبلغْ))، كي ينعي الميت لمن يريد تبليغهم، أو يخاطب بالنعي الميت نفسه على سبيل التحية، والمقدمة الدُّعَائية؛ والتي يصدرها الشاعر بالدعاء للميت والترحم عليه والاستغفار له، وهناك المقدمة اللَّومية؛ وفيه يوجه الشاعر اللوم إلى من يرون إيغاله من البكاء والنحيب على الميت، طالبا منهم أن يكفوا على نهيهم له.

[1] – أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج02، مصدر سبق ذكره، ص248.

[2] – الديون، مصدر سبق ذكره، ص 281.

لغة الشعر :

الملاحظ أن لغة الشعر في عصر صدر الإسلام ما زالت تدين بالولاء للغة الجاهلية في كثير من القصائد، خاصة عند المخضرمين، الذين اكتملت أدواتهم الفنية والفكرية في العصر الجاهلي، ويرجع هذا لقوة هذه اللغة وكمالها، وفرضها نفسها فرضا على أصحابها، إلا أن الشئ الجديد في لغة شعراء عصر صدر الإسلام زيادة على التأثر بالمفردات والأساليب القرآنية، هو البعد عن الألفاظ الغريبة والوحشية، وفيما يأتي أهم الظواهر اللغوية في شعر المراثي النبوية :

1/ **التكرار:** يعد التكرار من أكثر الظواهر الأسلوبية ورودا في الرثاء، ويكثر هذا الحضور في عصر صدر الإسلام ويرجع هذا –كما يقول ابن رشيق – : « لمكان الفجيعة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد » [1]، وكأن الشعراء يريدون أن يوصلوا للمتلقي مقدار ما يعانونه من فقدهم لأحبابهم، أو يشعروه بمقدار الخسارة التي أدركتهم بسبب هذا الفقد، وقد جاء التكرار في المراثي النبوية في أكثر من من موطن، منه قول عاتكة بنت عبد المطلب : [2]:

عَيْنَيَّ جُودَا طَوَالَ الدَّهْرِ وَانْهَمِرَا	سَكْبًا وَسَحًّا بِدَمْعٍ غَيْرِ تَعْذِيرِ!
يَا عَيْنِ فَاسْحَنْفِرِي بِالدَّمْعِ وَاحْتَفِلِي	حَتَّى الْمَمَاتِ بِسَجْلٍ غَيْرِ مَنْزُورِ
يَا عَيْنِ فَانْهَمِلِي بِالدَّمْعِ وَاجْتَهِدِي	لِلْمُصْطَفَى، دُونَ خَلْقِ اللَّهِ، بِالنُّورِ

فقد تكررت لفظة ((العين))، في سياق استمطارها للدمع، الذي تكرر بدوره ثلاثة مرات في الأبيات السابقة، ما يدلنا على مبلغ حزنها وفجيعتها بموت ابن أخيها صلى الله عليه وسلم.

2/ **القسم:** كثرت أنواع الاقسام في عصر صدر الإسلام، كثيرٌ منها كان مستعملا في العصر الجاهلي، وجاء الإسلام قأقرَّه، بشرط أن يصرف لله تعالى، ويكثر استعمال لفظة : ((والله – بالله – تالله – لعمري– لعمرك– لعمر الله– حلفت بربِّ كذا))، وكذلك الحلف ببعض شعائر الحج، أو بالقرآن، وشاهده من المراثي النبوية قول حسان بن ثابت [3] :

آلَيْتُ مَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ مُجْتَهِدًا	مِنِّي أَلِيَّةَ بَرٍّ غَيْرِ إِفْنَادِ
تَاللهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلَا وَضَعَتْ	مِثْلَ الرَّسُولِ نَبِيِّ الْأُمَّةِ الْهَادِي

[1] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 76.

[2] – أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى،ج02، مصدر سبق ذكره، ص 248.

[3] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص66.

وقول أروى بنت عبد المطلب [1]:

لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِمَوْتِهِ!	وَلَكِنْ لِهَرْجٍ كَانَ بَعْدَكَ آتِيَا

3/ **الدعاء** : كثر استعمال الجاهليين للدعاء في رثائياتهم، طلبا للرحمة والسقيا لموتاهم، وفي الإسلام تأكَّد هذا الأمر للقيمة الروحية للدعاء، خاصة للموتى من ذويهم وأهليهم، وفيما يلي بعضا من الأدعية التي قيلت في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم ، قول حسان بن ثابت [2]:

فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ	بِلَادٌ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
وَبُورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضُمَّنَ طَيِّبًا	عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدُ

وقول أروى بنت عبد المطلب [3]:

عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ السَّلامُ تَحِيَّةً	وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ الْعَدْنِ رَاضِيَا!

وقول عاتكة بنت عبد المطلب [4]:

فَاذْهَبْ حَمِيدًا! جَزَاكَ اللَّهُ مَغْفِرَةً	يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّوَرِ

4/ **النداء** : وهو سمة أسلوبية تكثر كذلك في المراثي، لأن الشاعر ينادي أكثر من مخاطَبٍ، بدءا بنفسه ومرثيه، ومن يدعوه للبكاء والنحيب على الميت، وقد كثر النداء في المراثي النبوية، ومنه قصيدة سالم بن هبيرة [5]:

أَفَاطِمُ بَكِّي وَلَا تَسْأَمِي	لِصُبْحِكِ مَا طَلَعَ الكَوْكَبُ
فَيَا عَيْنُ وَيْحَكِ لَا تَسْأَمِي	وَمَا بَالُ دَمْعِكِ لَا يُسْكَبُ!

وفيه تظهر نبرة الحزن والأسى بادية على الشاعر، وهو يخاطب فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويخاطب عينه .

وهناك أساليب أخرى ولكنها تقلُّ بل وتندر في المراثي النبوية كالاستغاثة والإبلاغ والحوار.

---

[1] – أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى،ج02، مصدر سبق ذكره، ص248.

[2] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص60، 62.

[3] – أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى،ج02، مصدر سبق ذكره، ص 248.

[4] – الصفحة نفسها.

[5] – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، التعازي والمراثي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1996، ص181، هذا الأبيات تُنسب كذلك لصفية بنت عبد المطلب كما في طبقات ابن سعد الكبرى.

الصورة الفنية :

الناظر في شعر صدر الإسلام يرى أنه قد أكثر من الصور الشعرية المختلفة، إحساسا منه بأهمية الصورة في التعبير عن الأفكار والأحاسيس، لأنها إذا افتقدت يصير شعرا باردا جافا، لا تتحقق معه المتعة الجمالية، وقد آخذت هذه الصور عدة أشكال؛ فجاءت على شكل تشبيهات واستعارات وكنايات، وكي يسهل تناول التصوير في المراثي النبوية، يحسن بنا أن نقسم المعاني التي تنتمي إليها، حيث هناك صور جاءت لتدل على معنى الثناء والإشادة بالميت، وأخرى جاءت لتدلّ على الحزن واللألم لفقده، وهناك معان أخرى في المرثيات غير النبوية في عصر صدر الإسلام كالصور الخاصة بمشاعر الانتقام والأخذ بالثأر والتهديد والوعيد وغيرها.

*من ذلك وصفه صلى الله عليه وسلم بالنور والضياء دلالة على الهداية والخير والنفع، يقول حسان [1] :

فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا	إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنْ الْمَوْتِ مُقْصِدُ

وقول كعب بن مالك أيضا [2]:

نَخُصُّ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِه	وَكَانَ سِرَاجًا لَنَا فِي الدُّجَى!
وَكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُنْذِرًا	وَنُورًا لَنَا ضَوْءُهُ قَدْ أَضَا
فَأَنْقَذَنَا اللَّهُ فِي نُورِهِ	وَنَجَّى بِرَحْمَتِهِ مِنْ لَظَى!

والشواهد في هذا كثيرة جدا.

* من ذلك تصوير أبو سفيان بن الحارث لحالهم بعد قبض الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد شبه كأن الأرض – لهذا المصاب – كادت تميل من جوانبها، فيقول [3]:

وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمّا عَرَاهَا	تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيلُ

*ومنها تصوير حسان أن السماء والأرض بكتا لموت النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول [4] :

يُبَكُّونَ من تبكى السّماوات يَوْمَهُ	وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ

[1] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص62.

[2] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص 173

[3] – أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج04، تح: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط01، 1992، ص1676.

[4] – الديوان، مصر سبق ذكره، ص 62.

الموسيقى :

يشكل الإيقاع والموسيقى جزءا مهما وجوهريا في القصيدة، فليس هو زخرف وزينة وتلاعب بالأسماع، حتى إن من النقاد من يرفض ترجمة الشعر؛ إذ إنه بهذا يفقد بريقه ورونقه –كما يرى الجاحظ – وليس يهمنا تتبع الإيقاع الخارجي من نوع البحر الشعري والقافية المستخدمة، فالشعراء قد استخدموا أوزانا كثيرة في المراثي النبوية وكان أكثرها ورودا هو الطويل والبسيط والكامل، وهي أكثر البحور استخداما في الشعر العربي كله –كما هو معلوم – وقد ذكر إبراهيم أنيس سبب بروز هذه الأوزان في فن الرثاء « أن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع، يصب فيه من أشجانه ما يتنفس عنه حزنه وجزعه » [1] ويكفينا أن نذكر فقط بعض الظواهر الصوتية المبثوثة بين ثنايا المراثي النبوية منها على سبيل المثال :

التصريع : هو اتفاق شطري البيت في القافية والروي، وهو غالبا ما يأتي في استهلال القصائد، وقد يأتي بين ثناياها، وقد جاء في قصيدة حسان – التي مرت بنا – [2]:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ	مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمُدُ

التقسيم : وهو عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، بأن يكون كلامه أجزاءً، ترجع كلها لمعنى واحد، ما يعطيه جرسا موسيقيا ظاهرا، ومثاله ما قاله حسان بن ثابت في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم [3]:

حَامِي الْحَقِيقَةِ نَسَّالُ الْوَدِيقَةِ فك	اك الْعُنَاةِ. كَرِيمٌ مَاجِدٌ عَالِ!
عَلَى رَسُولٍ لَنَا مَحْضٍ ضَرِيبَتُهُ	سَمْحِ الْخَلِيقَةِ. عَفٍّ غَيْرِ مِجْهَالِ
كَشَّافِ مَكْرُمَةٍ، مِطْعَامِ مَسْغَبَةٍ	وَهَّابِ عَانِيَةٍ وَجْنَاءَ شِمْلَالِ!
عَفٍّ مَكَاسِبُهُ. جَزْلٍ مَوَاهِبُهُ	خَيْرُ الْبَرِيَّةِ سَمْحٍ غَيْرِ نَكَّالِ!
وَارِي الزِّنَادِ وَقَوَّادِ الْجِيَادِ إِلَى	يَوْمِ الطِّرَادِ. إِذَا شَبَّتْ بِأَجْذَالِ

[1] – موسيقى الشعر، دار القلم، بيروت، لبنان، 1972، ص 196.

[2] – الديوان، مصدر سبق ذكره، ص60.

[3] – أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى،ج02، مصدر سبق ذكره، ص246– 247.

مضامين المراثي النبوية :

إذا تتبعنا ما قيل في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، فإننا نرى أن الشعراء قد تناولوا عديد القضايا المرتبطة بالنبي صلى الله عليه وسلم، فكان وجه الشبه بين رثائه صلى الله عليه وسلم ورثاء غير من الصحابة هو تعداد المناقب وذكر الفضائل، ونثر الدموع، والدعوة إلى الصبر، والتسليم بقضاء الله، وتوظيف القرآن الكريم، وغيرها من المعاني الإسلامية، التي لا تخرج به عن سياقه الملتزم، إلا أنَّ ما تفردت به المرثية النبوية على باقي المراثي الأخرى ما يمكن أن نشير إليه فيما يأتي :

1/ وصفه صلى الله عليه وسلم بما هو أهله كالهداية والرشاد والمقام المحمود واللواء المعقود والشفاعة العظمى وغيرها مما يتفرد به صلى الله عليه وسلم.

2/ دعوة الله أن يجمعه بأصحابه في جنات النعيم، وأن يرحمهم به.

3/ عدم الغلو فيه وإطرائه بما هو منهي عنه (كالذي فعله البوصيري مثلا في بردته).

4/ عدم تخلص بعض مراثي الشعراء المخضرمين للنبي صلى الله عليه وسلم من الإرث الجاهلي، وشاهد ذلك قول أبو ذؤيب الهذلي مستحضرا عقيدة زجر الطير (الطِّيَرَة)، المنهي عنه شرعا [1] :

وَلَقَدْ زَجَرْت الطّيْرَ قَبْلَ وَفَاتِهِ	بِمُصَابِهِ وَزَجَرْت سَعْدَ الْأَذْبَحِ

ولعل تفسير هذا الأمر يرجع إلى أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا ممن صاحب النبي صلى الله عليه وسلم صحبة، تجعل منهم عارفين بتعاليم الإسلام وتشريعاته، فهم بعد إسلامهم رجعوا إلى مضاربهم وقبائلهم، ولذلك ما زالت المعتقدات الجاهلية ملتصقة بهم.

5/ من الأشياء الجديدة في الرثاء، ذكر انقطاع الوحي بعد موته صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر هذا كعب بن زهير وعاتكة بنت عبد المطلب، ومن ذلك قول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب [2] :

فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَالتّنْزِيلَ فِينَا	يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جَبْرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَقّ مَا سَأَلَتْ عَلَيْهِ	نَفُوسُ النّاسِ أَوْ كَرَبَتْ تَسِيلُ
نَبِيّ كَانَ يَجْلُو الشّكّ عَنّا	بِمَا يُوحَى إلَيْهِ وَمَا يَقُولُ

[1] – أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج07، تح : عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط01، 2000، ص 598.

[2] – أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج04، مصدر سبق ذكره، ص1676.

6/ ذكر بعض القضايا السياسية المتعلقة بالأمة بعد موته صلى الله عليه وسلم كقضية الخلافة، كما في مرثية عبد الله بن أنيس؛ التي يدعو فيها أن لا تخرج عن قريش، وبالتحديد عن أصحابه المقربين؛ أبي بكر وعمر وعلي رضي الله تعالى عنهم، فيقول[1]:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِنَا؟	وَهَلْ فِي قُرَيْشٍ مِنْ إِمَامٍ يُنَازِعُ؟
ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِنْ قُرَيشٍ هُمُ هُمُ	أَزِمَّةُ هَذَا الأَمْرِ، وَاللَّهُ صَانِعُ
عَلِيٌّ أَوِ الصِّدِّيقُ أَوْ عُمَرُ لها	وَلَيسَ لها بَعْدَ الثَّلاثَةِ رَابِعُ!
فَإِنْ قَالَ مِنَّا قَائِلٌ غَيْرَ هَذه	أَبَيْنَا، وَقُلْنَا: اللَّهُ رَاءٍ وَسَامِعُ
فَيَا لِقُرَيْشٍ! قَلِّدُوا الأَمْرَ بَعْضَهُمْ	فَإِنَّ صَحِيحَ الْقَوْلِ لِلنَّاسِ نَافِعُ
وَلا تُبْطِئُوا عَنْهَا فَوَاقًا فَإِنَّهَا	إِذَا قُطِعَتْ لَمْ يَمْنُ فِيهَا الْمَطَامِعُ

وفي الختام لابد من الإقرار أن المراثي النبوية ما زالت تحتاج أكثر إفاضة، من قبل الدارسين، فيما يخصُّ موضوعاتها وخصائصها الفنية، ومضامينها.

[1] – أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 245.